مكتب إتقان
للتحقيق والدراسات العلمية

شرح

القصيدة الهائية

في

الزهد والترغيب والترهيب

للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

اعتنى به

خالد بن عبد الله بن علي الكندري

مكتب إتقان
للتحقيق والدراسات العلمية

شرح
القصيدة الهائية
في
الزهد والترغيب والترهيب

للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

اعتنى به

خالد بن عبد الله بن علي الكندري

الطبعة الثانية
١٤٤٤ / ٢٠٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نحمَدُهُ ونستَعِينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفسنَا، ومن سيِّئَات أعمالِنَا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

أما بعد:

فبين أيدينا منظومةٌ نافعةٌ، وقصيدةٌ مفيدةٌ، للعلامةِ العَلَم الشيخ الإمام حافظ بن أحمد بن علي الحكمي رحمه الله، الشهيرِ بحُسْنِ التَّصانيفِ، وجمالِ المُؤَلَّفاتِ، وجودةِ المنظوماتِ العلميةِ المتنوعةِ في أبوابِ الشَّريعةِ؛ لما حوتْهُ من علمٍ غزيرٍ، وتقريرٍ نافعٍ، وحُسْنِ استدلالٍ، وجمالِ ترتيبٍ، ووُضوحِ عبارةٍ، وطِيبِ نُصْحٍ مِنْ هذا الإمامِ الهُمام رحمه الله.

ومـمَّا نظمَهُ رحمه الله هذه القصيدة الهائية، وهي في بابٍ شريفٍ ومهمٍّ من العلمِ؛ وهو الزهدُ في الدنيا، والتحذيرُ مِنَ الافتتانِ بها، والتكالُبِ عليها، وأن تكونَ أكبرَ همِّ المرءِ، ومَبلغَ علمِه، وغايةَ مقصودِهِ، فإنَّ مَن كان كذلك أضرَّتْهُ الدنيا مَضَرَّةً عظيمةً، وكانت سبَبَ هلكتِه وحرمانِه من الخيرِ.

والناظمُ رحمه الله قد أحسنَ وأجادَ في هذهِ القصيدة؛ فإنَّها مع اختصارها حوتْ خيرًا كثيرًا، ونفعًا عظيمًا.

وقد كتبَ العلماءُ رحمهم الله في هذا البابِ كتاباتٍ نافعةً، ومؤلفاتٍ مفيدةً؛ كالإمام أحمدَ، وابنِ المباركِ، ووكيع، وهَنَّادِ ابنِ السَّرِي، وغيرِهم رحمهم الله.

وطالبُ العلمِ يحتاجُ أن يقرأَ ما كتبَه أهلُ العلمِ في هذا البابِ؛ مِنْ أَجْلِ أن تتهذَّبَ نفسُه، ويستقيمَ قلبُه، وتصلُحَ حالُه، وألَّا يفتتنَ بالدُّنيا.

وأُحِبُّ أن أشير إلى أنَّ الشيخَ زيدَ بن محمد بن هادي المدخلي رحمه الله له تعليقٌ على هذه المنظومةِ بعنوان: «التعليقات البَهِيَّة على القصيدةِ الهائيةِ»، وفيه كفايةٌ في توضيحِ مضامِينها،

وبيانِ ما حوتْهُ مِنْ مَعانٍ عظيمةٍ، وإفاداتٍ مباركة، وهي مطبوعةٌ متداولةٌ[1].

أسألُ اللهَ أن يجزيَ النَّاظِمَ خير الجزاءِ، وأن يرفع درجته في عليِّين، وأن ينفعَ بهذا الشرح كُلَّ مَن يقرؤه، إنَّه وليُّ التوفيقِ لا شريك له[2].

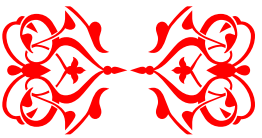

(١) طُبِعَتْ منها طبعةٌ عن دار المنهاج، سنة ١٤٢٤هـ في (٥٦ صفحة).

(٢) أصل هذا الشَّرح دروسٌ ألقَيْتُها في مسجد عائشة المحري في دولة الكويت، في تاريخ ٢٨/ ٢/ ١٤٣٧هـ، وقام الأخ خالد الكندري بتفريغها وتنسيقها، ثم قُمتُ بمراجعتها، وإضافةِ بعض الفوائد عليها.

واللهَ أسأل أن يجزيَ كُلَّ مَن اجتهد في إخراجِ هذه المادة ونَشْرِها بين المسلمين خيرَ الجزاء، وأخصُّ منهم الإخوةَ في مكتبِ إتقان في دولة الكويت؛ لمزيد عنايتِهم وجهدِهم في إخراجِها.

نَصُّ

القصيدة الهائيَّة

القصيدة الهائية في الترغيب والترهيب

للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي

١ وما لي وللدُّنيا وليسَتْ بِبُغْيَتي ... ولا مُنتهى قصْدي ولسْتُ أَنا لَها
٢ ولسْتُ بِميَّالٍ إليها ولا إلى ... رِئاسَتِها، نَتْنًا وقُبْحًا لحالِها!!
٣ هي الدَّارُ دارُ الهمِّ والغمِّ والعَنا ... سريعٌ تَقَضِّيها، قريبٌ زوالُها
٤ مَياسِيرُها عُسْرٌ، وحُزْنٌ سُرورُها ... وأَرْباحُها خُسْرٌ، ونقْصٌ كمالُها
٥ إذا أَضْحَكَتْ أبكَتْ، وإنْ رامَ وَصْلَها ... غبيٌّ فيا سُرْعَ انْقِطاعِ وِصالِها!
٦ فَأَسْأَلُ ربِّي أنْ يحُولَ بحوْلِهِ ... وقوَّتِهِ بيني وبينَ اغْتِيالِها
٧ فيا طالبَ الدُّنيا الدَّنيئةِ جاهِدًا ... أَلا اطْلُبْ سِواهَا؛ إنَّها لَا وَفَا لها
٨ فَكَمْ قد رأَيْنا مِنْ حريصٍ ومُشْفِقٍ ... عليها، فَلَمْ يظفَرْ بها أنْ يَنالَها
٩ لقَدْ جاءَ في آيِ «الحديد» و«يُونُسٍ» ... وفي «الكهف» إيضاحٌ بِضَرْبِ مِثالِها
١٠ وفي «آلِ عِمرانَ» وسُورةِ «فاطِرٍ» ... وفي «غافرٍ» قَدْ جاءَ تِبيانُ حالِها
١١ وفي سُورةِ «الأحقافِ» أعظَمُ واعِظٍ ... وكَمْ مِن حديثٍ مُوجِبٍ لاعْتِزالِها
١٢ لقدْ نَظَروا قومٌ بعَينٍ بَصِيرةٍ ... إليها فلَمْ تَغْرُرْهُمُ باخْتِيالِها
١٣ أُولئِكَ أهلُ اللهِ حَقًّا وحِزْبُهُ ... لهم جنَّةُ الفِردَوسِ إِرْثًا، ويا لها!
١٤ ومَالَ إليها آخرونَ لِجهْلِهِمْ ... فلمَّا اطْمَأَنُّوا أَرْشَقَتْهُمْ نِبالَها
١٥ أُولئِكَ قَومٌ آثَروها فَأُعْقِبُوا ... بها الخِزْيَ في الأُخْرَى، وذاقُوا وَبالَها
١٦ فقُلْ لِلَّذين اسْتَعْذَبُوها: رُوَيْدَكُم! ... سَيَنْقَلِبُ السُّمَّ النَّقِيعَ زُلالُها
١٧ لِيَلْهُوا ويَغْتَرُّوا بها ما بَدا لهم ... متى تَبْلُغِ الحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبالُها

١٨ ويَـوْمَ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْـسٍ بِكَسْـبِها تَـوَدُّ فِـداءً لَـوْ بَنِيـهَا ومَالَـها
١٩ وتأْخُـذُ إمَّـا بـاليمينِ كتابَهـا إذا أَحْسَـنَتْ، أَوْ ضِـدَّ ذا بشِـمالِها
٢٠ ويَبْـدُو لَـدَيها مـا أَسَـرَّتْ وأَعْلَنَـتْ ومـا قـدَّمَتْ مِـنْ قولِهـا وفِعالِهـا
٢١ بأَيْـدِي الكِـرامِ الكـاتِبينَ مُسَـطَّرٌ فلـمْ يُغْـنِ عنهـا عُـذْرُها وَجِـدالُها
٢٢ هُنالِـكَ تَـدْرِي رِبْحَهـا وخَسَـارَها وإذ ذاك تَلْقَـى مـا إليـهِ مآلُهـا
٢٣ فـإنْ تَـكُ مِـنْ أَهْـلِ السَّـعادةِ والتُّقَـى فـإنَّ لهـا الحُسْـنَى بِحُسْـنِ فِعالِهـا
٢٤ تفـوزُ بجنَّـاتِ النَّعِـيمِ وحُورِهَـا وتُحْبَـرُ في رَوْضـاتِها وظِلَالِهـا
٢٥ وَتُـرْزَقُ مِمَّـا تشـتهي مِـنْ نَعِيمِهـا وتَشْـرَبُ مِـنْ تَسْـنِيمِها وَزُلالِهـا
٢٦ وإنَّ لهُـمْ يـومَ المَزيـدِ لَمَوْعِـدًا زِيـادَةَ زُلْـفَى، غيـرُهُمْ لا يَـنالُها
٢٧ وُجُـوهٌ إلـى وَجْـهِ الإلـهِ نَـواظِرُ لقـد طـالَ مـا بالـدَّمْعِ كـانَ ابْتِلَالُها
٢٨ تَجَلَّـى لهـا الـربُّ الـرَّحيمُ مُسَـلِّمًا فيَـزْدادُ مِـنْ ذاكَ التَّجَلِّـي جمالُهـا
٢٩ بمَقْعَـدِ صِـدْقٍ حبَّـذا الجـارُ ربُّهُـمْ ودارِ خُلُـودٍ لـمْ يَخـافُوا زَوالَهـا
٣٠ فَواكِهُهـا مِمَّـا تَلَـذُّ عُيُـونُهُمْ وَتَطَّـرِدُ الأنهـارُ بـينَ خِلالِهـا
٣١ علـى سُـرُرٍ مَوْضُـونَةٍ، ثُـمَّ فُرُشُـهُمْ كمـا قـالَ فيهـا ربُّنـا واصِـفًا لهـا
٣٢ بطَائِنُهـا إسْـتَبْرَقٌ، كيـفَ ظـنُّكُمْ ظَواهِرُهـا؟! لا مُنتَهـى لِجمالِهـا
٣٣ وإنْ تَكُـنِ الأُخـرى فوَيْـلٌ وحَسْـرَةٌ ونـارُ جَحِـيمٍ مَـا أَشَـدَّ نَكَالَهـا!
٣٤ لهُـمْ تَحْـتَهُمْ مِنْهـا مِهـادٌ، وفَـوْقَهُمْ غَـواشٍ، وَمِـنْ يَحْمُـومِ ساءَ ظِلالُهـا
٣٥ طعـامُهُمُ الغِسْـلينُ فِيهـا، وإنْ سُـقُوا حَمِيمًـا بـهِ الأمعـاءُ كـانَ انْحِلَالُهـا
٣٦ أَمانِيُّـهُم فـيها الـهَلاكُ، ومـا لـهم خُـرُوجٌ وَلا مَـوْتٌ، كمـا لا فَـنَا لهـا
٣٧ مَحَلَّـينِ قُـلْ لِلـنَّفْسِ: لـيسَ سِـواهُما لِتَكْسِبَ أَوْ فَلْتَكْتَسِبْ مـا بَـدَا لهـا
٣٨ فَطُـوبَى لـنَفْسٍ جَـوَّزَتْ وتَخَفَّفَـتْ فتَنْجُـو كَفافًـا لا عليهـا وَلا لهـا

شرحُ

القصيدة الهائية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الناظمُ رحمه الله:

١- وما لي وللدُّنيا وليسَتْ بِبُغْيَتي
ولا مُنتهى قَصْدي ولسْتُ أَنا لَها
٢- ولسْتُ بِميَّالٍ إِليها ولا إلى
رِئاسَتِها، نَتْنًا وقُبْحًا لحالِها!!

الشرح

قوله: (وما لي وللدُّنيا وليْسَتْ ببُغْيَتي)؛ صدَّرَ الناظمُ رحمه الله هذه القصيدة بهذا البيت مبينًا أن الدنيا لم تَأْسِر قلبه، ولم تستحوذ على نفسه؛ كما هو حال كثيرٍ من الناسِ ، ولا يقول هذه الكلمة إلا من فطن لحال الدنيا وما فيها من فتنةٍ جارفةٍ، وزخرفٍ زائلٍ، ومتاعٍ فان .

وهذه الكلمة قد ثبتتْ عن النبيِّ ﷺ؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن عمرَ رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو على حَصيرٍ، قد أثَّر في جنبهِ، فقال: يا نبي الله! لو اتخذت فراشًا أوثرَ من هذا؟ فقال:

«ما لي وللدنيا؟! ما مَثَلي ومَثَل الدنيا إلا كراكبٍ سارَ في يومٍ صائِفٍ فاستظَلَّ تحتَ شجرةٍ ساعةً من نهارٍ ثُمَّ راحَ وتركها»[1].

وهذه حال العبد في الدنيا، وحال إقامته وتـمتُّعِهِ بملذَّاتِها، فهو كمثل رجلٍ استظلَّ بظل شجرةٍ ثم مضى وانصرف وتركها، فلماذا تستولي على قلب المرء؟! ولماذا تستحوذ على اهتمامه؟! ولماذا تكون مبلغ علمه وغاية مقصوده وهذا مَثَلُها؟!

قوله: (وليْسَتْ بِبُغْيَتِي)؛ أي: ليست بمَطلَبي ومقصودي وهمَّتي، وإنما الهمة والرغبة منصرفة للآخرة؛ فهي البُغية والرغبة، بل هي غاية الـمُنَى.

قوله: (ولا مُنْتَهى قَصْدِي)؛ أي: إنَّها لم تَسْتَولِ على مقصده وغايتِهِ، وإنما الغاية نيل رضوان الله ﷻ والفوز بالدرجات العُلا في الآخرة.

قوله: (ولسْتُ بميّالٍ إليها)؛ أي: ليس عندي ميلٌ وانشراحُ صدرٍ ورغبةٌ في الدنيا، وزينتها وزخرفها ورئاستها، كل ذلك ليس لي فيه همَّةٌ ولا رغبة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٩).

فأرشدَ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذين البيتين إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم -الناصح لنفسه- مع هذه الدنيا، وألَّا يغتر بمتاعها الزائل، وزُخْرُفِها الفاني، وبهجتها المنقضية، فإن كلَّ فرحةٍ وعافيةٍ، وكلَّ غنىً ومتاع في الدنيا سينتهي ولا بدّ.

ولا يُفهمُ مما تقدَّم أن يَتركَ الإنسانُ تحصيلَ ما يُقيم دنياه ورزقَه ومسكنَه وملبسَه، ويبقىٰ عالةً علىٰ الآخرين، بل لا يضرُّ المسلمَ أن يعملَ ويكدَح ويحصِّلَ المال، ولو أصبح المال عنده كثيراً، لكن الذي يضره أن تكون الدنيا همَّهُ وبُغيتَه ومَبلغَ علمه.

ولذا جاء عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا**»(١).

ولا يَضُرُّهُ أيضًا أن يكون من اهتمامه بالدنيا إبقاءُ أولادِه أغنياء، وتحصيلُ مصالحِهم وأرزاقِهم، كما جاء في الحديث: «**إنك أن تذرَ ورثتَك أغنياء، خيرٌ من أن تذَرَهم عالةً يتكفَّفون الناسَ، وإنَّكَ لن تُنفقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرتَ بها، حتَّىٰ ما تجعلُ فِي فِيْ امرأتِكَ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في «الكلم الطيب» (٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٢٩٥)، ومسلم في «صحيحه» (١٦٢٨)، واللفظ للبخاري.

فأبواب الزهد في الدنيا إن لم تُفهم على وجهها فقد تصل بالإنسان إلى الدخول في نوعٍ من الانحراف والمخالفة لشرع الله ﷻ.

فالحاصل أنَّ الإنسانَ ينبغي أن يعرفَ حقيقةَ الدنيا، وخِسَّتها، وسرعة زوالها، وأنَّها ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا الخير وذكر الله والعمل الصالح والتقرب إلى الله ﷻ، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ذكر الله وما والاه وعالمٌ أو مُتعلِّمٌ**»(١).

«فالدنيا في الحقيقة لا تُذَمُّ، وإنما يتوجَّهُ الذمُّ إلى فعل العبدِ فيها، وهي قنطرةٌ ومعبرٌ إلى الجنة أو النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظُ والغفلةُ والإعراض عن الله والدار الآخرة -فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها- صار لها اسم الذمِّ عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته، وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيشٍ ناله أهل الجنة في الجنة إنَّما كان بما زرعوه فيها.

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٣٢٢)، واللفظ له، وابن ماجه في «السنن» (٤١١٢)، وحسَّنهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (٧١).

وكفى بها مدحًا وفضلاً ما لأولياء الله فيها من قُرَّة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم؛ بذكره ومعرفته ومحبتهِ وعبادته والتوكل عليه، والإنابة إليه، والأنس به، والفرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته، والإقبال عليه، والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامُهُ ووحيُهُ وهداه وروحُه الذي ألقاه من أمرِه؛ فاجتبى به من شاء من عباده»[1].

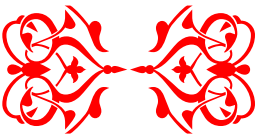

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (ص٣٣١).

قال الناظمُ رحمه الله:

٣- هي الدَّارُ دارُ الهمِّ والغمِّ والعَنا
سريعٌ تَقَضِّيها، قريبٌ زوالُها

٤- مَياسِيرُها عُسْرٌ، وحُزْنٌ سُرورُها
وأَرْباحُها خُسْرٌ، ونقْصٌ كمالُها

٥- إذا أَضْحَكَتْ أبكَتْ، وإنْ رامَ وَصْلَها
غبيٌّ فيَا سُرْعَ انْقِطاعِ وِصالِها!

الشرح

يبيِّنُ رحمه الله في هذه الأبيات حال الدنيا، وحال الناس فيها.

قوله: (دارُ الهمِّ والغمِّ والعَنا)؛ هذه أمورٌ حاصلةٌ للناس ولا بُدَّ، فإنهم وإنْ أُوتوا فيها المالَ والرِّئاسات والمناصب فلن يَسلَموا منها.

فإنَّها إن أضحكتْ قليلاً أبكتْ كثيراً، وإن سرَّت قليلاً أحزنت كثيراً، وما مُلئ بيتٌ فرحًا إلا مُلئ تَرَحًا.

ودواءُ الهمومِ والغمومِ ذكرُ الله سبحانه وتعالى، وعبادتُهُ، واللجوءُ إليه،

والإقبالُ على طاعته، وتلاوة القرآن، والإيمان بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، أي: يَسْعد، ويَهْنأ في الحياة الدنيا.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣].

ولهذا ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما قال عبدٌ قطُّ إذا أصابَه هَمٌّ وحُزْنٌ: اللهمَّ إني عبدُك، وابنُ عبدِك، ابنُ أمتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألكَ بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علمتَه أحدًا من خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونُورَ صدري، وجِلاءَ حُزني، وذهابَ هَمِّي؛ إلا أذهبَ اللهُ ﷻ همَّهُ، وأبدلَه مكانَ حزنِهِ فرحاً**، قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلمَ هؤلاء الكلمات؟ قال: **أَجَل، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ**»[(١)].

فهذه الأمور المذكورة في الحديث من صحة المعتقد، والإيمان بالقدر، والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته، والتوسل إلى الله ﷻ بها، وكذا العناية بالقرآن والاستشفاء به، وغير ذلك مما ورد في الحديث هي التي فيها مداواة الهُموم والغُموم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤٣١٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

قوله: (سَريعٌ تَقَضِّيها، قَريبٌ زَوالُـهَا)؛ أي: مع هذه الأشياء المتقدمة مِن الهمِّ والغَمِّ والآلام؛ **(سَريعٌ تَقَضِّيها)** فسريعاً ما تنقضي.

ولهذا مهما أُوتِيَ المرءُ في هذه الدنيا من الجاهِ والمالِ والرِّئاسة وما إلى ذلك؛ **فمصيرُهُ بين حالين**: إمَّا أن تذهبَ عنه دُنْيَاهُ، وإمَّا أن يذهبَ هو عنها بموته، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

وكذلك انقضاءُ الدُّنيا كلِّها قريبٌ، كما قال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

فعلى العبدِ أن يتنبَّهَ لحال الدنيا وسُرعة انقضائها.

قوله: (مياسِيرُها عُسْرٌ، وحُزنٌ سُرُورُها)؛ أي: إنَّ الذي في الدنيا من خيرٍ ويُسْرٍ وعافية، يقابلُهُ أيضـًا ما فيها من عُسْرٍ ونَكَدٍ وآلامٍ.

فالمصائبُ والمتاعبُ تُلازِمُ طالبَ الدنيا في أحواله الثلاثة: قَبْلَ تحصيلها، ووقت تحصيلها، وبعد تحصيلها، فالمرءُ يعاني معاناةً شديدةً ويكونُ في همٍّ وغمٍّ حتى يُحصِّلَ مَطلوبَهُ في الدنيا، وفي همٍّ وغمٍّ بعدَ تحصيله خشيةَ أن يَضيعَ منه، فتجد الإنسان مثلاً

لو طَمِعَ في شراء سيارة أو مَنْزِلٍ أو غيره، فإنَّه يتعبُ وينصَبُ في التفكير وجمع المال، فإذا حصَّلَه وصارَ في يدِه انتقلَ لِـهَمٍّ آخر وهو خشيةُ ضَرَرِه وفقدِه، فلا يَسْلَمُ أيُّ شيءٍ في الدنيا من هذه الأمور.

قوله: (وأَرْبَاحُهَا خُسْرٌ)؛ وذلك لأنَّ الأشياء التي يربحها الإنسان ويحصِّلُها في الدنيا غالبـًا ما تكون على حساب دينهِ الذي خُلق من أجله، إلَّا من وفَّقهُ الله ﷻ وهدَاهُ للجمعِ بين خيري الدنيا والآخرة.

قوله: (ونَقْصٌ كَمَالُهَا)؛ أي: أنَّ كمال الدنيا للمرء هو نقصٌ في الحقيقةِ؛ لأنها تأخذ شيئـًا من نصيبهِ من الطاعة والعبادة وذكر الله ﷻ ولا بُدَّ.

قوله: (وإن رَامَ وصْلَها غَبيٌّ فَيا سُرْعَ انقطاعِ وِصَالِها)؛ أي: إذا طَمِع المرءُ في وصل الدنيا ونيلِ نعيمِها فسريعًا ما ينقضي هذا الوصال وينقطع.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «سرورُ الدُّنيا أحلامُ نومٍ، أو كظلٍّ زائل، إن أضحَكتْ قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرَّت يومًا ساءت

دهرًا، وإن متَّعتْ قليلًا مَنَعتْ طويلًا، وما مَلَأتْ دارًا خيرةً إلا مَلَأتها عَبرَةً.

قال ابن مسعود ﷺ: لكل فرحةٍ تَرْحة، وما مُلِئَ بيتٌ فرحًا إلا مُلِئَ تَرَحًا.

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما كان ضحكٌ قطُّ إلا كان من بعده بكاء»[1].

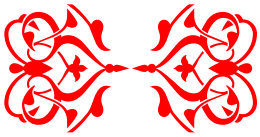

(١) «زاد المعاد في خير هدي العِباد» (٤/ ١٧٤-١٧٥).

قال الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦- فَأسْـألُ ربـِّي أنْ يحُـولَ بحوْلـِهِ
وقوَّتـِهِ بيـنـِي وبـينَ اغْـتِيالـِها

الشرح

لما ذَكَرَ حال الدنيا وبيَّن أمرها دعا بهذه الدعوة العظيمة: (فأسألُ ربي أنْ يَحولَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بيني وبينَ اغْتِيَالِها)؛ أي: بيني وبين أن تغتالني الدنيا، فكم قد تزينت للخلق حتى فُتِنوا بها، واغترُّوا بها، فاغتالتهم وأهلكتهم.

ولا خلاص من اغتيال الدنيا وفَتْنِها للمرء إلا باللجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتعوذ به من فتنتها، كما جاء في «صحيح البخاري»: (بابُ التعوُّذِ من فتنةِ الدنيا) وأوردَ حديثَ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تُعلَّم الكتابة: **اللهمَّ إني أعوذُ بك مِنَ البُخلِ، وأعوذُ بك من الجُبنِ، وأعوذُ بك أن نُرَدَّ إلى أَرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بك من فتنةِ الدُّنيا وعذابِ القبرِ**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٩٠).

ومِنَ الدَّعواتِ النافعةِ ما ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قَلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعوَ بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللهمَّ اقْسِم لنا من خشيتكَ ما يَحُولُ بيننا وبين معاصيك، ومِن طاعَتِكَ ما تُبلِّغنا به جنَّتَك، ومِنَ اليقين ما تُهَوِّنُ به علينا مُصيبات الدنيا، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارثَ منَّا، واجعلْ ثأرَنا على مَن ظَلَمنا، وانصُرْنا على مَن عادانا، ولا تجعلْ مُصيبتنا في دِيننا، ولا تجعلِ الدُّنيا أكبرَ همِّنا، ولا مَبْلغَ عِلمنا، ولا تُسَلِّط علينا مَن لا يرحمنا**»[1].

وأيضاً من الدعواتِ النافعةِ في هذا الباب ما ثبتَ من دُعائه ﷺ: «**اللهمَّ أصلحْ لي ديني الذي هو عِصْمة أمري، وأصلحْ لي دُنياي التي فيها معاشي، وأصلحْ لي آخرتي التي فيها مَعادي، واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كل خَيرٍ، واجعل الموتَ راحةً لي من كل شرٍّ**»[2].

فالحاصل أن الدعاءَ مفتاح الخير، ومفتاح الفرج، ومفتاح النجاة، فلهذا ينبغي على العبد أن يُقبل على الله ﷻ بالدعاء.

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في «الكلم الطيب» (٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٢٠).

قال الناظمُ رحمه الله:

٧- فيَا طالبَ الدُّنيا الدَّنِيئةِ جاهِدًا
أَلَا اطْلُبْ سِواهَا؛ إنَّها لَا وَفَا لها

٨- فَكَمْ قد رأَينا مِنْ حريصٍ ومُشْفِقٍ
عليها فَلَمْ يظفَرْ بها أنْ يَنالَها

الشرح

قوله: (فيا طالبَ الدنيا الدنيئةِ جاهِداً أَلا اطْلُبْ سِوَاها)، يخاطبُ الناظم رحمه الله من استغرق جهدَهُ ووقتَهُ وهمَّتَهُ وذكاءَهُ في طلبِ الدنيا، وأكبَّ عليها بكُلِّيَّته، ومراده بـ(سِوَاها): أي: الآخرة، فلا تكن من أهل الدنيا وكن من أهل الآخرة.

وإنَّما يكون المرء من أهل الآخرة بطلب العلم، والتفَقُّه في الدين، والإقبال على طاعة رب العالمين، ولهذا روى أنسٌ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**منهُومان لا يَشبعان؛ منهومٌ في العلمِ لا يشبعُ منه، ومنهومٌ في الدُّنيا لا يشبعُ منها**»[1].

(١) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٠٢٧٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٢٤).

ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنهما أنه قال: «منهومان لا يشبعان: صاحبُ العلم، وصاحبُ الدنيا، ولا يستويان؛ أمَّا صاحبُ العلم فيزدادُ رضًا للرحمن، وأما صاحبُ الدنيا فيتمادىٰ في الطُّغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧]، وقال الآخَرُ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]»[1].

قوله: (إنَّها لا وَفا لَها): أي: أنها تُغَرِّر بأهلها وأصحابها بمتاعها، ثم تزولُ عنهم ولا تبقىٰ لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

قوله: (فَكمْ قد رأَينا مِنْ حَريصٍ ومُشفقٍ عليها): أي: كثيرٌ هم الذين انشغلوا بالدنيا وزخرفها عن العبادات والفرائض وأعمال الخير والبر والتقرب إلىٰ الله فأصبحَت همَّهم.

قوله: (فلمْ يَظْفَرْ بها أن ينالهَا)، وإن نال منها شيئًا فسيذهب هذا الشيء عنه، أو يذهب عنه بالموت لا مَحالة.

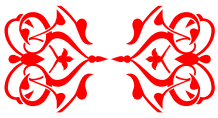

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٣٤٤).

قال الناظمُ رحمه الله:

٩- لقدْ جاءَ في آيِ «الحديد» و«يُونُسٍ»

وفي «الكهف» إيضاحٌ بِضَرْبِ مِثالِها

١٠- وفي «آل عِمرانَ» وسُورةِ «فاطِرٍ»

وفي «غافرٍ» قَدْ جاءَ تِبيانُ حالِها

١١- وفي سُورةِ «الأحقافِ» أعظَمُ واعِظٍ

وكَمْ مِن حديثٍ مُوجِبٍ لاعْتِزالِها

الشرح

هذه الأبيات الثلاثة هي من أعظم ما احتوت عليه هذه المنظومة؛ لأنَّ بيان حالِ الدنيا ومتاعِها الزائل والتزهيد فيها جاء في نصوصِ الوحيين، فالناظم رحمه الله أشار فيها إلى كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ.

قوله: (لقد جاء في آي الحديد)؛ يشير رحمه الله لقول الله تعالى:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وهو مَثَلٌ عظيم، صدّره الله ﷻ بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ وهي كلمة تنبيهٍ يُؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة المهمة ليتنبَّه لها المرءُ ويُحسنَ فهمَها.

قوله: ﴿لَعِبٞ﴾؛ فشأنُ الدُّنيا أنها مُشغِلةٌ لأبدان الناس وأوقاتهم، فتَضِيع أوقاتُهُم وتهلك أبدانهم باللعب.

قوله: ﴿وَلَهۡوٞ﴾: أي: أنَّها مُلْهِيَةٌ للقلوب، وصارفةٌ لها عمَّا خُلِقَتْ لأجله.

قوله: ﴿وَزِينَةٞ﴾: أي: في الملبس والمركب والمسكن، وفيها أشياءُ تأسِرُ الإنسان وربما استولت على قلبه؛ فتصبحُ همَّتُهُ ومقصِدُهُ في تحصيلِها.

قوله: ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾: فكُلَّما ظفَرَ الإنسان بشيءٍ من متاع الدنيا أَخَذَ يفخَرُ به ويتعالى على الآخرين، وأنه أوسَعُ وأكثر وأفضل منهم، ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾، فتكون هِمَّتُه أن يكون أكثرَ مالاً وولداً من غيرِه، كما قال الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢].

قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾؛ يعني: كمثل مَطَرٍ نزلَ على أرضٍ جَدْبةٍ أصابها القحط، فأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بَهِيج، وأُعْجِبَ الكفَّارُ -وهُم الزُّرَّاع- بنباتِهِ، واستولى على قلوبهم جمال الأَرضِ وزينتها، ثمَّ ينقضي هذا الجمال، ويَهْلِك النبات، وتذهبُ زينَتُهُ.

فانظر إلى جمالِ الأرضِ وزينتِها في الربيع إذا نزل المطر، وكيف يطيبُ النظر إليها، وتمتَلئ العينُ بهجةً وسروراً كلَّما تكرَّر النظر إليها.

ثم انظر إلى الأرضِ ذاتها مرةً أخرى بعد انقضاء الربيع، قد لا تطيق النظر إليها من الجدب الذي أصابها.

فهذا مَثَلٌ عظيمٌ ضربَهُ العليمُ الخبيرُ ﷻ لحال الدنيا وزخرفها ومتاعها في أَمْرٍ يشاهدُهُ الناس بين حينٍ وآخر في حياتهم.

قوله: (ويُونُس)؛ ضرَبَ الله ﷻ فيها مَثَلاً آخر في بيان حال الدنيا، وهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾[يونس: ٢٤]، فلمَّا نزل هذا المطر وارتوت به الأرض أنبتتْ نباتاً صالحاً يأكُلُه وينتفع به الإنسان والأنعام، فيظنُّ الإنسان أنَّها باقيةٌ ومستمرَّةً له،

فهذا حال تزيُّن الدنيا وتجملها للمرء، لكن ماذا بعد ذلك؟ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء، وإنَّما ينتفع بمثل هذه الأمثالِ العظيمةِ أهلُ التفكر والتأمُّل؛ فتوقِظُ قلوبَهم وتحييها، ويَسْلَمُون من الاغترار بزُخرفِها والافتتانِ بزينتها.

قوله: (وفي الكَهْفِ): أي: قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، «كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أُعْجِبَ بشبابِهِ، وفاق فيها على أقرانِهِ وأترابِهِ، وحصَّل درهمَها ودينارَها، واقتطف من لذَّتهِ أزهارَها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاتِهِ، وظنَّ أنه لا يزال فيها سائر أيامِهِ، إذ أصابه الموت أو التلف لمالِهِ، فذهب عنه سرورُه، وزالت لذَّته وحبوره، واستوحش قلبُه من الآلام، وفارق شبابَه وقوَّته ومالَه، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعضُّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العَودَ إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات؛ بالتوبة والأعمال

الصالحات، فالعاقل الحازمُ الموفَّق يعرضُ على نفسه هذه الحالة، ويقولُ لنفسِه: (قدِّري أنك قد مُتِّ، ولا بدَّ أن تموتي، فأيَّ الحالتين تختارين؟ الاغترارَ بزخرف هذه الدار، والتمتعَ بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العملَ لدارٍ أُكلُها دائمٌ وظلُّها، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين؟).

فبهذا يُعرَفُ توفيقُ العبدِ من خذلانِه، وربحُهُ من خسرانِه»[1].

قوله: (إيضاحٌ بضربِ مثالها): أي: جاء في الآيات الثلاث المتقدِّمة توضيح حال الدنيا بضرب مِثَالٍ يكشف عن حقيقتها، وفائدة الأَمثال المضروبة تقريب المعاني، وجعل الأمور المعنوية بمثابة الأمور المشاهدة المحسوسة، ولهذا قد أكثر الله ﷻ منها في القرآن؛ لعظيم نفعها، والله ﷻ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قوله: (وفي آلِ عمرانَ وسورة فاطرٍ وفي غافرٍ قد جاءَ تبيانُ حالها): فجاءَ في هذه السور الثلاث بيان حال الدنيا، وأنَّها متاع الغرور، فأمَّا آيةُ آل عمران فهي قول الله ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لابن سعدي (ص٥٥٠).

وأمَّا آية فاطر فهي قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[فاطر:٥].

وأمَّا آية غافر فهي في النصيحة التي قدَّمَها مؤمنُ آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾[غافر:٣٩].

فبيَّن الله ﷻ في الآيات المتقدِّمة أنَّ الدنيا متاعٌ زائلٌ فانٍ، وأنَّها متاعُ الغرور، والمتاعُ مهما كَبُر واتَّسَعَ وعَظُمَ فهو زائل في نهايته وفانٍ، فلماذا يغتر بها الإنسان؟!

قوله: (وفي سورةِ الأحقافِ أعظمُ واعظٍ)، لعلَّ الناظمَ رحمه الله يشيرُ إلى ما جاء في أواخر سورة الأحقاف؛ وهي قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف:٣٥]، فهذا مِن أعظمِ وأكبرِ المواعظِ؛ أن يعرفَ الإنسانُ أنَّ العُمرَ الذي عاشَه في هذا الدنيا، والسِّنين التي قضاها ستكونُ إذا وقفَ يوم القيامةِ بين يدي الله ﷻ كأنَّها ساعة من نهار.

فكيفَ يغترُّ الإنسان ويستولي علىٰ قلبِهِ هذا الوقت القليل الذي سرعان ما ينقضي ويذهب؟!

ومِن العَجيبِ أنَّ هذه الدنيا خلقها الله ﷻ وسخَّرَها لأجل الإنسان؛ فسَخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وهيأ له خَيرات هذه الدنيا ليستعينَ بها على طاعة الله ﷻ، فكَيفَ ينشغل الإنسانُ بالأشياءِ التي خُلِقَت لأجلهِ عمَّا خُلِقَ هو من أجلِهِ! كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فالله ﷻ خَلَقَ الإنسان للعبادة، وأوجده للطاعة، ولم يَمنَعْهُ من كَسْب الرزق، وتحصيل المسكن والمركب، ولكن جاء التحذير من افتتان الإنسان بالدنيا حتى تأسر قلبَهُ، وتصبح غاية همِّهِ، فتشغَلَهُ عمَّا خُلِق مِنْ أجلِهِ.

قوله: (وكم مِن حديثٍ موجِبٍ لاعتِزالها): من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ذكر الله، وما والاه، وعالـمٌ، أو مُتعلمٌ**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ، وإنَّ اللهَ مُستخلِفُكُم فيها فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساءِ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٢٣٢٢)، واللفظ له، وابن ماجه في «سننه» (٤١١٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٤٢).

والنُّصوصُ في هذا المعنى كثيرة في الكتاب والسنة تحذيرًا من الافتتان بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة.

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تتمُّ الرغبة بالآخرة إلا بالزُّهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

* **نظرٍ في الدنيا**، وسرعةِ زوالها، وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسَّتِها، وأَلَمِ المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف؛ فطالبها لا ينفك من هَمٍّ قبل حُصُولِها، وهَمٍّ حال الظَّفرِ بها، وغَمٍّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

* **النظر الثاني النظر في الآخرة**، وإِقبالِها ومجيئِها ولا بد، ودوامِها وبقائِها، وشَرفِ ما فيها مِنَ الخَيراتِ والمسرَّات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصةٌ منقطعةٌ مُضمحلةٌ.

فإذا تمَّ له هذان النظران آثر ما يقتضي العقلُ إيثاره، وزَهَدَ فيما يقتضي الزهد فيه..»[1].

(١) «كتاب الفوائد» (ص١٣٦).

وذَكرَ رَحِمَهُ اللَّهُ نحوَ هذا المعنى في موضعٍ آخر، وزادَ عليه أمراً ثالثاً، فقال: «**والذي يُصَحِّحُ هذا الزهدَ ثلاثةُ أشياء:**

* **أحدها**: علم العبد أنها ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، وأنها كما قال الله فيها: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد:٢٠].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

وسماها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (متاع الغرور)، ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها، وحذَّرنا من مِثْلِ مَصَارعهم، وذمَّ من رَضِيَ بها، واطمأنَّ إليها.

وقال النبيُّ ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟! إنما أنا كراكبٍ قال في ظل شجرة، ثم راحَ وتركها**»(١).

وفي «المسند» عنه ﷺ حديثٌ معناه: إنَّ اللهَ جعلَ طعامَ ابنِ آدم، وما يخرجُ منه مَثَلاً للدُّنيا؛ فإنَّه وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحهُ فلينظر إلىٰ ماذا يصير(٢).

فما اغترَّ بها ولا سَكَنَ إليها إلا ذو هِمَّةٍ دَنِيَّة، وعَقْلٍ حَقِير، وقَدْرٍ خَسِيس.

---

(١) تقدَّم تخريجه عند البيت: (١) (ص١٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢١٢٣٩)، ولفظه: «عن أبيٍّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مطعمَ ابن آدم جُعِل مثلاً للدنيا، وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحهُ، فانظروا إلىٰ ما يصير**».

وأخرج الإمام أحمد (١٥٧٤٧) أيضًا؛ عن الضحَّاك بن سفيان الكِلابي ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «**يا ضَحَّاك ما طعامُك؟**»، قال: يا رسول الله، اللحم واللبن؟ قال: «**ثُمَّ يصيرُ إلىٰ ماذا؟**»، قال: إلىٰ ما قد عَلِمتَ، قال: «**فإنَّ الله ﷻ ضربَ ما يخرجُ من ابن آدم مَثَلًا للدُّنيا**»، وصحَّحَهُ الألباني لغيره في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٢).

وقوله ﷺ: «**وإن قزَّحه ومَلَّحه**»، قال ابن الأثير: «أي: تَوبَلَهُ، من القِزْح وهو التابل الذي يُطرح في القِدْر، كالكَمُّون والكزبرة ونحو ذلك، والمعنىٰ: أن المَطْعَم وإن تكلف الإنسانُ في التَّنَوقِ في صَنْعَتِه وتَطْيِيبه فإنه عائد إلىٰ حالٍ يُكْرَهُ ويُسْتَقْذَرُ، فكذلك الدنيا المحروص علىٰ عمارتها، ونظم أسبابها؛ راجعة إلىٰ خرابٍ وإدبار». «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٥٨).

* **الثاني**: علمُهُ أن وراءَها داراً أعظم منها قدراً، وأجلُّ خطراً، وهي دار البقاء، وأنَّ نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مِثلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَهُ هذه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ تَرجع؟**»[1].

فالزاهِدُ فيها بمنزلةِ رَجُلٍ في يدِه دِرْهمٌ زائِفٌ بَهْرَج، فقيل له: «اطرَحهُ، ولك عِوضُهُ مائة ألف دينار مثلاً»، فألقَاه من يده، رجاءَ ذلك العِوَض.

فالزاهد فيها لكمال رغبَتِهِ فيما هو أعظم منها زَهَدَ فيها.

* **الثالث**: معرفتُهُ أنَّ زُهدَهُ فيها لا يمنعُهُ شيئًا كُتِبَ له منها، وأن حِرصَهُ عليها لا يَجْلِبُ له ما لم يُقْضَ له منها، فمتىٰ تيقَّن ذلك، وصار له به علمُ يَقينٍ؛ هان عليه الزهد فيها؛ فإنه متىٰ تيَقَّن ذلك، وثلج له صدره، وعلم أن مضمونَهُ منها سيأتيه؛ بقي حِرصُه وتعبُهُ وكدُّهُ ضائعًا، والعاقل لا يرضىٰ لنفسه بذلك.

فهذه الأمور الثلاثة تسهل علىٰ العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه، والله الموفق لمن يشاء»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٥٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/ ٥٥٠-٥٥٤).

قال الناظمُ رحمه الله:

١٢- لقدْ نَظَروا قومٌ بعَينٍ بَصيرةٍ
إليها فلمْ تَغْرُرْهُمُ باخْتِيالِها
١٣- أُولئِكَ أهلُ اللهِ حَقًّا وحِزْبُهُ
لهم جنَّةُ الفِردَوسِ إِرْثًا، ويا لها!

الشرح

هذه حالُ أهل الحق والهدى، ومَن وفَّقَهم الله سبحانه وتعالى، وشرح صدورهم، وهداهم إلى صراطه المستقيم، فإنَّهم نظروا إلى الدنيا **(بعينٍ بصيرة)**؛ فالنظر إن كان عن بصيرةٍ وتأمُّلٍ في حقيقة الدنيا وهوانها على الله عز وجل، وسرعةِ انقضائِها وزوالِها، وكونها متاع الغرور؛ هو النظر النافع للعبدِ، وهو نظرُ أهل الهداية والحقِّ.

قوله: (فلم تغرُرهم)؛ هذا نتيجة النظر النافع المتقدِّم؛ أنَّها لم تغررهم **(باخْتِيَالها)** أي: بزينتها وزُخرُفِها ومتاعِهَا.

قوله: (أولئك): أي: الذين وفقهم الله عز وجل لمعرفة حقيقة الدنيا، ولم تغررهم، ولم يغتروا بزُخرُفها.

قوله: (أهلُ الله حقًّا وحزبهُ): أي: خاصَّتُهُ وأولياؤُه؛ الذين اختصَّهُم برحمتِهِ وعظيم فضلِهِ، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

وثبتَ في الحديث عن نبينا الكريم ﷺ أنه قال: «**إن لله أهلين من الناس**»، قالوا: يا رسول الله؛ مَنْ هُم؟ قال: «**هُمْ أهلُ القرآن؛ أهلُ الله وخاصَّتُه**»[(١)].

قوله: (لهمْ جنةُ الفردوس): أعدها الله ﷻ نُزُلاً لهم، ومَثوبةً، وكرامة.

قوله: (إرثًا ويا لها): أي: ويا لها من إرثٍ ونعمةٍ وعطية؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، فهؤلاء هم الوارثون لهذه النعمة الجليلة والمَكْرُمة العظيمة؛ جنةِ الفردوس.

وقد ذكر الحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه النافع «رياض الصالحين» أبياتًا، وهي تنسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، تحوي المعنىٰ الذي أشار إليه الناظم:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢١٥)، وصححه الألباني، انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٥٨٢).

إنَّ للهِ عِبـادًا فُـطَـنـا

طلَّقوا الدُّنيا وخَافُوا الفِتَنا

نَظَرُوا فيها فلمَّا عَلِمُوا

أنَّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنا

جَعَلوها لُجَّةً واتَّخذوا

صَالحَ الأعمالِ فيها سُفُنَا[1]

(١) «رياض الصالحين» (ص٢٧)، وهي ضمن المطبوع من «ديوان الإمام الشافعي» (ص١٠٩).

قال الناظمُ رحمه الله:

١٤- ومَـالَ إليهـا آخـرونَ لِجهْلِهِـمْ
فلمَّا اطْمـأَنُّوا أرْشَقَتْـهُمْ نِـبالَها

١٥- أُولَـئِكَ قَـوْمٌ آثَـرُوها فَـأُعْقِبُوا
بها الخِزْيَ في الأُخْرَى، وذاقُوا وَبالَها

الشرح

قوله: **(ومَال إليها آخرون لِجهلهم)**؛ هذا قسمٌ آخر من الناسِ؛ وهم الذين غرَّتهم الدنيا، وفُتِنوا بزُخرفها، وأَلْهَتْهُم بمتاعِها، وسَلبَتْ أعينَهم زينتُها، فمالوا إليها، وأصبحت بغيتَهم، وأكبرَ همِّهم، ومنتهى قصدهم.

قوله: **(لِجهلهم)**؛ بيَّن الناظمُ رحمه الله أنَّ سَببَ هذا الافتتان والاغترار هو الجهل بالله سبحانه وتعالى، وبحَقِّهِ الواجبِ عليهم، وكذلك لجهلهم بحقيقة الدنيا ومآلِها.

قوله: **(فلما اطْمَأنوا)**: أي: لهذا الزخرف الزائل والمتاع الفاني، وظنُّوا أنهم باقون في هذا المتاع والزُّخرف أبدًا؛ **(أرْشَقتهُم نِبَالَها)**؛ **الرَّشقُ**: هو الرمي، والمقصود أنها رَمَتْهُم بنِبالها؛ فمنهم مَن

هَلَك على عِصيانهِ وغُرورهِ وإعراضهِ عن الله ﷻ، ومنهم من ازدادَ طُغيانًا وكُفرًا بما أوتي من متاع الدنيا وزُخرفها، ومنهم مَن عاش حياةً هو فيها محرومٌ من لذة الطاعة، وهناءَة التقرب إلى الله ﷻ، فأهلكتهم أشدَّ الهلكة.

قوله: (أُولئك قومٌ آثرُوها)؛ أي: آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، ولم يكن لهم مرادٌ ولا رغبةٌ إلا بها، كما قال الله ﷻ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، فماذا كانت النتيجة؟

قال: (فأُعقِبُوا بها الخزي فِي الأُخرى)؛ أي: كانت العاقبة هي الخزي في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء:١٨].

قوله: (وَذَاقُوا وَبَالَهَا): الوَبَال: هو سوء العاقبة، والمآل الوَخِيم، والمقصودُ: أنَّهم ذاقوا الخزيَ وسوءَ العاقبة يوم وقوفِهم بين يدي الله ﷻ في الآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومتى رأيتَ القلبَ قد ترحَّلَ عنه حُبُّ الله والاستعداد للقائه، وحَلَّ فيه حُبُّ المخلوقِ، والرِّضا بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها؛ فاعلم أنه قد خُسِفَ به»[1].

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).

قال الناظمُ رحمه الله:

١٦- فقُلْ لِلَّذين اسْتَعْذَبُوها: رُوَيْدَكُم!
سَيَنْقَلِبُ السُّمَّ النَّقِيعَ زُلالُها

١٧- لِيَلْهُوا ويَغْتَرُّوا بها ما بَدا لهم
متى تَبْلُغِ الحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبالُها

الشرح

قوله: (فَقُل): أي: يا مَن وَفَّقك الله ﷻ لحُسْنِ البصيرة، والمعرفةِ بحال الدنيا؛ (للذين اسْتَعْذَبُوها)، ركنُوا إلى عُذُوبَتها وحلاوتِها، وافتتنوا بزُخرفها.

قوله: (رُوَيدَكُمْ): أي: تمهَّلوا، وانظروا في عواقب هذا الغُرور والافتتان قبل أن تندموا في مَوْطِنٍ لا ينفعكم فيه النَّدمُ، وانظروا إلى ماذا سيؤول هذا الذي استعذبتموهُ، فإنَّهُ (سَيَنْقَلِبُ السُّمَّ النّقِيعَ زُلالُها): **السُّمُّ النَّقيعُ، وسُمٌّ ناقِعٌ، وسُمٌّ مَنقوع**؛ أي: بالغُ الإضرار، وشديد التأثير، ومُرادُهُ رحمه الله: أنَّ هذا الذي ترونَهُ عَذْبًا زُلالاً من مُتَعِ الدنيا سينقَلِبُ إلى سُمٍّ شديد الإضرار والإهلاك على صاحبِهِ المفتون بحلاوة الدُّنيا وزخرفها.

قوله: (لِيَلْهُوا ويَغْتَرُّوا بِها ما بَدا لَهم): وهذا كلامٌ عظيم، فإنَّه يُقال للمفتون بالدنيا: لو لُهيتَ بهذه الدنيا ومتاعِها وزخرفها؛ فإلى متى سيستمرُّ هذا اللهو؟! أتنتظِرُ أن يَفْجَأَكَ ويَدْهَمَكَ الموتُ وأنت على هذه الغفلة؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

وهؤلاء اللَّاهون الغافلون متى عاينوا الموت تَمَنَّوا أن يُؤَجَّلَ؛ ليعملوا صالحًا غير الذي كانوا يعملون، ولهذا يُذكَرُ عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أراد أن يَعِظَ أحد المُفَرِّطين المعرضين فأخذَهُ إلى القبور، فقال له: (يا فلان لو كنت مكان هؤلاء ماذا تتمنَّى؟ قال: والله أتمنَّى أن يُعيدَني اللهُ للدنيا لأعمل صالحًا غيرَ الذي كنت أعملُ، فقال: يا هذا أنت فيما تتمنَّاه، فاعمل!).

قوله: (مَتى تَبلُغِ الحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبَالُها): أي: متى تبلغ الروحُ الحلقومَ ستنقطع حبالُ الدنيا، وهي العَلائق والصِّلاتُ التي يرتبط بها الإنسان في الدنيا؛ من التِّجارات، والأموالِ، أو القصورِ، أو غيرها، كلُّها ستنتهي وتنقَطِع، إذا بلغتِ الروحُ الحلقومَ، لأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم**

يُغَرغِر»[1]، أي: ما لم تبلغ الروحُ الحلقوم، كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨] فإذا حضر الموتُ وصار عَيانًا، وبلغت الروح الحلقوم، فلا تنفع التوبةُ حينئذٍ صاحبَها.

ومقصود الناظم رحمه الله بهذا الكلام الحثُّ على المبادرة بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى الله ﷻ.

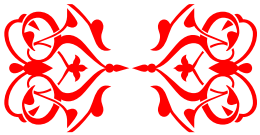

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٥٣٧)، واللفظ له، وابن ماجه في «السنن» (٤٢٥٣)، وحسَّنه الألباني في«صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٣).

قال الناظمُ رحمه الله:

١٨- ويَـوْمَ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْـسٍ بِكَسْـبِها
تَـوَدُّ فِـداءً لَـوْ بَـنِـيـهَا ومَـالَـها

١٩- وتأْخُـذُ إمَّـا بـاليمينِ كتابَهـا
إذا أَحْسَـنَتْ، أَوْ ضِـدَّ ذا بشِـمالِها

٢٠- ويَبْـدُو لَـدَيها ما أَسَـرَّتْ وأَعْلَـنَتْ
ومـا قـدَّمَتْ مِـنْ قولِهـا وفِعالِهـا

الشرح

قوله: (ويَوْمَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِها): أي: بما كَسَبت وحَصَّلَت في هذه الحياة الدنيا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران:٢٥].

وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١].

فقوله عز وجل: ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾، أي: ما قدمَتْهُ في هذه الحياة من أعمال فإنها سوف ﴿ تُوَفَّىٰ ﴾ أي تُجازىٰ جزاءً وافيـاً يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الله عز وجل.

وينبغي للعبد أن يُدْرِك ذلك، وأن أيامه وشهوره وأعوامه وكل ما يقع فيها من أقوالٍ وأعمالٍ محصاةٌ عليه، وسيوفَّى ذلك كلَّه يوم القيامة.

قوله: (تَوَدُّ فداءً لو بَنيها ومالها): فالـمُعْرِضُ والمفرِّط في ذلك اليوم يندم ندماً شديداً على تفريطه وتضييعِهِ حينما يرى العذاب، ويود أن يفدي نفسه من العذاب وَسخَطِ الجبَّار ﷻ ولو ببَـنِـيه وماله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٤].

ويقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾[الرعد:١٨]، أي: من عذاب الله وعقوبته.

قوله: (وَتَأخُذُ إِمَّا بِاليَمينِ كِتابَها، إذا أَحْسَنَت): وهم أهل القِسم الأَوَّل المتقدِّم؛ الذين وفَّقهم الله ﷻ للعلم النافع والعمل الصالح، ولم يغترُّوا بالدنيا وزُخرفها، فهؤلاء يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ وذلك جزاء الإحسان الذي كان منهم في هذه الحياة الدنيا.

قوله: (أَو ضِدَّ ذَا بِشِمَالِها)، وهؤلاء هم القسم الثاني، وهم الذين لم يُحسِنوا، بل أساؤوا وغرتهم الحياة الدنيا، فإنهم يأخذون كتابهم بِشمالهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:١٩-٣٢].

قوله: (ويبدو لَدَيْها ما أَسَرَّتْ وأَعْلَنَتْ، وما قدَّمَتْ من قولِها وفعالِها)، في ذلك اليوم تبدو للإنسان الأعمال التي قدمها، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥].

وسيقفُ الإنسان حينها على عملهِ كُلِّـه ويراهُ مَسْطُوراً في كتابِ أعماله، كما قال تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩].

ويجدُهُ حاضِراً عنده، ثمَّ يُجازى عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾[النجم:٣١].

وقال أيضاً: ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾[طه:١٥]، فمَن وَجَدَ خيرًا فليحمدِ الله، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسه.

فهذا كله مما يدعو العبدَ إلى التيقظ والتفطن، والأخذ بالحزم والعزم، وأن يزمّ نفسه بزمام الحق والهدى، وأن يَحْذَرَ أشد الحذر من التفريط والتهاون والتسويف والتأجيل.

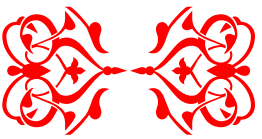

قال الناظمُ رحمه الله:

٢١- بأَيْـدِي الكِـرامِ الكـاتِبينَ مُسَـطَّرٌ
فلـمْ يُغْـنِ عنهـا عـُذْرُها وَجِـدالُها

٢٢- هُنالِـكَ تَـدْرِي رِبْحَهَـا وخَسَـارَها
وإذ ذاك تَلْقَـى مـا إليـهِ مآلُهـا

٢٣- فإنْ تَـكُ مِـنْ أَهْـلِ السَّعادةِ والتُّقَى
فـإنَّ لهـا الحُسـنَى بِحُسْـنِ فِعالِهـا

٢٤- تفـوزُ بجنَّـاتِ النَّعِـيمِ وحُورِهَـا
وتُحْبَـرُ في رَوْضـاتِها وظِلَالِهـا

٢٥- وَتُـرْزَقُ مِمَّـا تشـتهي مِـنْ نَعِيمِهـا
وتَشْـرَبُ مِـنْ تَسْـنِيمِها وَزُلالِهـا

الشرح

قوله: (بأَيدِي الكِرامِ الكاتِبينَ مُسَطَّرٌ)، فكل ما قدَّمهُ العبدُ من قولٍ أو فِعلٍ قد سُطِّرَ بأيدي الملائكة الكاتبين في كتابِ أعماله؛ كما قال ﷻ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]،

فإنَّ الله ﷻ قد وَكَلَ إلى ملائكةٍ كتابةَ الأعمال وتسطيرَها ونسخَها، فيكتبون كلَّ ما يقوله العبدُ ويفعله، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨-٢٩].

فالمراد بقوله: ﴿نَسْتَنسِخُ﴾: أي: بأمرنا للملائكة أن تكتبَ أعمالكم، فتُحْصَىٰ عليكم مسطرةً في كتابٍ، تجدونهُ يوم القيامة حاضراً أمامَكم.

قوله: (فَلَمْ يُغنِ عنها عُذْرُها وجِدَالُها): أي إذا قامت هذه النفس المُفرِّطة لتعتذرَ أو تجادلَ عن حالِها ومآلها في ذلك اليوم؛ فلن تنفعها المعذرة، ولن ينفعها الجدال؛ لأنه يوم الجزاء والحساب.

قوله: (هُنَالِك تَدْري رِبْحَها وخَسَارَها): فإذا أخذ الإنسانُ كتابَهُ، ثمَّ وجد أعمالَهُ مُحصاةً عليه، ولم يبقَ إلا حُلُول الجزاء؛ هنالك يظهر الرابح الذي ينقلب إلى أهله مسروراً، أو الشقيُّ الخاسر والعياذ بالله.

قوله: (وإذْ ذَاكَ تَلْقَىٰ مَا إليه مَآلُها): أي ما تؤول إليه؛ لأن ذاك اليوم هو يوم الجزاء، فالمحسن يؤول أمرُهُ إلى الفوز بالإحسان،

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم:٣١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

والمسيء يؤول أمرُهُ إلى العقوبة والخُسران، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾[الروم:١٠].

وبعد ذلك فصَّل الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ في مآل المُحسنين، ومآل المُسيئين، فقال في مآل المحسنين الرابحين:

(فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادةِ والتُّقَى): أي إذا كان العبد من الذين كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم السعادة، فسلك بهم طريق السعادة، وكانوا من الملازمين لتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (فَإِنَّ لهَا الحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِها)، فأهل السعادة والتقى لهم عند الله الحسنى؛ وذلك لحُسْنِ فعالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، ثم فصَّل رَحِمَهُ اللَّهُ في الثواب والنعيم فقال:

(تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النعيمِ)؛ التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ نزلاً لعباده المتقين، وأوليائه المقربين، وذلك هو الفوز العظيم.

قوله: (وحُورِها): أي وتفوز بما أعدَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها لهم من الحور العين.

قوله: (وتُحْبَرُ في رَوضَاتِها وظِلالِها): أي: تُنَعَّم في روضات الجنة كما قال ﷻ: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[الروم:١٥]، أي: يتنعَّمون ويَهنؤون ويتلذَّذون بنعيم الجنة.

قوله: (وتُرْزَقُ): أي: في الجنة؛ **(ممَّا تَشْتَهي من نعيمِها)**، فيهنؤون بنعيم الجنة؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[السَّجدة:١٧].

قوله: (وتشربُ من تَسْنيمها وَزُلالِها): يشيرُ لقول الله ﷻ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾[المطففين:٢٧]، وهي أعلى أشربة الجنة، ولذا كانت خالصة للمقربين كما قال ﷻ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨].

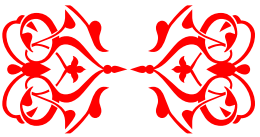

قال الناظمُ رحمه الله:

٢٦- وإنَّ لهُمْ يومَ المَزيدِ لَمَوْعِدًا
زِيادَةَ زُلْفَى، غيرُهُمْ لا ينالُها

٢٧- وُجُوهٌ إلى وَجْهِ الإلهِ نَواظِرُ
لقد طالَ ما بالدَّمْعِ كانَ ابْتِلَالُها

٢٨- تَجَلَّى لها الربُّ الرَّحيمُ مُسَلِّمًا
فيَزْدادُ مِنْ ذاكَ التَّجَلِّي جمالُها

الشرح

هذا أعظمُ نعيمٍ لأهل الجنة وأكملُهُ؛ النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى، وهي الزيادة التي جاءت في قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦].

قوله (وَإِنَّ لَهمْ يَومَ المزيدِ لموعدًا)؛ المراد بيوم المزيد: يوم الجمعة، يُكْرِم الله سبحانه وتعالى فيه أهلَ الجنةِ ويُشرِّفهم بالنظر إليه، كما صحَّ عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث أنَّ جبريل عليه السلام يقول: «**ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد**»[(١)].

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٢٠٨٤)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٩٤): «حسن صحيح».

وثبتْ عن النبيِّ ﷺ أيضًا أنه قال: «**فليسوا هم في الجنة بأشوق إلى شيءٍ منهم إلى يومِ الجمعةِ، ليزدادوا منه كَرامةً، وليزدادوا نظرًا إلى وجهه ﷻ**»(١).

قوله: (زيادةَ زُلْفى): أي: لهم زيادةُ كرامةٍ ومَنزِلةٍ فوق النعيم والإكرامِ الذي يمنُّ الله ﷻ عليهم به في الجنة؛ مِمَّا لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر؛ فيُكرمُهم زيادةً على ذلك برؤيتِهِ ﷻ، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وثبت في السنَّة تفسيرُها بالنظرِ إلى وجهه ﷻ(٢).

قوله: (غَيْرُهُمْ لا يَنالُها): لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فأهل الإيمان هُم الموعودون برؤيتِهِ، ولا ينالُ هذا الشرفَ إلا هُم.

وبشَّر النبيُّ ﷺ أهل الإيمان بهذه المكرمة العظيمة فقال: «**إنَّكُم سترَون ربَّكم كما ترون هذا القمرَ، لا تُضامون في رؤيته،**

---

(١) أخرجه البزَّار في «البحر الزخار» (٧٥٢٧)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٦١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٨١).

فإن استطعتُم أن لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبلَ طُلُوعِ الشَّمس، وصلاة قبل غروب الشمس، فافعلوا»[1].

قوله: (وجوهٌ): أي: وجوه أهل الإيمان، **(إلى وجْهِ الإلهِ نَواظر)**؛ أي: بأبصارها حقيقةً، كما قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣].

فقوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾؛ مِن النُّضْرَة، وهي: الحُسْن والبهاء، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: أي: بأبصارها.

قال الحسن البصري رحمه الله: «وحُقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظر إلى الخالق»[2].

قوله: (لَقدْ طَالَ ما بالدَّمعِ كانَ ابتلالُها): أي: كم ابتلَّتْ أعينُهُم في الدنيا بالدَّمع، ولعلَّ الدمعَ هنا متعلِّقٌ بما سبَق؛ وهو شوقُ النظر إلى الله ﷻ، فقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أنَّ البكاءَ أنواعٌ؛ ومن جملتها بكاءُ المحبةِ والشوق[3].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٤٣٤)، ومسلم في «صحيحه» (٦٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٣/ ٥٠٧).

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ١٧٧)، وجملة الأنواع التي ذكرها رحمه الله ستة: (بكاءُ الرَّحمة والرقة، **والثاني**: بكاء الخوفِ والخشيةِ، **والثالث**: بكاء المحبة والشوق، **والرابع**: بكاء الفرح والسرور، **والخامس**: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله، **والسادس**: بكاء الحزن).

فكم اشتاقتْ قلوبُهم، وتاقتْ نفوسُهم، وطَمِعوا غايةَ الطَّمعِ والرَّجاءِ، وأكثرُوا مِن دعائِهم في الدنيا أن يكرمَهُم ربُّهم بهذا النظرِ، مُؤْتَسِين بنبيهم ﷺ في دعائه: «**وأسألك لذةَ النظرِ إلى وجهِك، والشوق إلى لقائك؛ في غيرِ ضرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة**»(١).

قوله: (تجلَّى لها الربُّ الرحيمُ مسلِّمًا)، **التجلِّي**: هو كمالُ الظُّهور، فاللهُ ﷻ يتجلَّى لتلك الوجوهِ فتزدادُ كرامةً ورِفعةً بالنظرِ إلى ربِّها الكريم.

قوله: (الربُّ الرحيمُ)، ذكر الناظم اسم الله تعالى: (الرَّحِيم) تنبيهًا إلى أنَّ هذه الكرامةَ العظمى إنَّما نالوها برحمةِ الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣].

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**فيتجلَّى لهم يضحك**»(٢)، أي: يتجلَّى الله للمؤمنين يومَ القيامة.

قوله: (مُسَلِّمًا)، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨]، فضمَّن الناظمُ رحمه الله الآية في صدر هذا البيت.

---

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١٣٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (١٠٦)

(٢) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١٩١).

قوله (فَيزْدَادُ مِنْ ذاكَ التَّجَلِّي جَمالُها): أي: يزدادون حُسْنًا وجمالًا بعد هذا التجلِّي والظهور، وكلَّما تكرَّرَ هذا النظرُ للربِّ العظيمِ ازدادَ الحُسْنُ والجَمالُ، كما جاء عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ لسُوقًا، يأتونها كلَّ جمعةٍ، فتَهُبُّ ريحُ الشَّمالِ فتحثُو في وجوهِهم وثيابِهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهِم وقد ازدادوا حُسنًا وجَمالًا، فيقول لهم أهلوهُم: والله لقد ازدَدْتُم بعدنا حُسنًا وجَمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازدَدْتُم بعدنا حُسنًا وجَمالًا**»[1].

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: «يجوزُ أن يكونَ هذا الحديثُ مُختصرًا من بقيَّة الأحاديث؛ **بأنَّ سببَ الازديادِ رُؤيةُ الله تعالى، معَ ما اقترنَ بها**»[2].

وهذا المعنى أيضًا تدلُّ عليه الآية الكريمة المتقدمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

وجاء في «صحيح مسلم» من حديثِ صُهيبٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول اللهُ تعالى: تريدون شيئًا**

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٨٣٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٠٨).

أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنةَ، وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيَكْشِفُ الحجابَ، فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظرِ إلى ربِّهم ﷻ، ثُمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]»[(١)].

(١) «صحيح مسلم» (١٨١).

قال الناظمُ رحمه الله:

٢٩- بمَقْعَدِ صِدْقٍ حبَّذا الجارُ ربُّهُمْ
ودارِ خُلُودٍ لَمْ يَخافُوا زَوالَها

٣٠- فَواكِهُها مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ
وَتَطَّرِدُ الأنهارُ بينَ خلالِها

٣١- علىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ، ثُمَّ فُرُشُهُمْ
كما قالَ فيها ربُّنا واصِفًا لها

٣٢- بطَائِنُها إسْتَبْرَقٌ، كيفَ ظَنُّكُمْ
ظَواهِرُها؟! لا مُنتَهىٰ لِجمالِها

الشرح

هذه جملةٌ من أوصاف الجنة في ضوء ما دلت عليه النصوصُ وجاءت بها الأدلة.

قوله: (بِمَقعدِ صِدْقٍ): المرادُ بمَقْعَدِ الصِّدْقِ: الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر:٥٤-٥٥].

وسُمِّيت الجنةُ مقعدَ صدقٍ لأنَّها المَقْعدُ الذي يُنالُ فيه كُلُّ شيءٍ حَسَن، وكُلُّ نعيمٍ وهناءٍ وقُرَّةِ عينٍ، **ومِن جُملتهِ**: مُجاورةُ ربِّ العالمين ﷻ -كما سيأتي-، فالأمرُ التامُّ يُوصَفُ بهذا الوصفِ؛ مثل أن يُقال: المحبَّةُ الصادقة، والمودَّة الصادقة، وهكذا.

قوله: (حَبَّذَا الجَارُ رَبُّهمْ)، ومِن ذلك: ما ورد في دعاء امرأةِ فِرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١]، قال العلماء: «إنها اختارت في دُعائها الجارَ قبلَ الدار»[(١)].

قوله: (ودارِ خُلودٍ)؛ فمِن إكرام الله ﷻ لأهل الجنَّةِ أن جعلَهم خالدين فيها أبدَ الآباد، ونعيمُ الجنة لا يَحُولُ ولا يَزُولُ، ولا ينقطع ولا يفنى.

قوله: (لَمْ يَخافُوا زَوالَها)، بخلافِ النَّعيمِ الذي يظفر به الإنسانُ في الدنيا، فإنه عن قريبٍ سينقطعُ ويزولُ -كما تقدَّم-.

قوله: (فَواكِهُهَا مِما تَلَذُّ عُيُونُهم)، ففي الجنَّةِ من الفواكِه والطَّعامِ ما لذَّ وطاب؛ ومِن جَمالِ فواكِه الجَنَّةِ وحُسْنِها أنَّ الأعينَ تلذُّ فيها قبلَ البُطون، كما قال الله ﷻ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الزخرف: ٧١].

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١٤/ ٦٦).

قوله: (وَتَطَّرِدُ الأَنهارُ بَيْنَ خِلَالِها): أي: تجري الأنهار من خلالِ هذه الجنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، في غير ما آية.

قوله: (علىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ): أي: يتَّكئون ويجلسُون علىٰ سُرُرٍ مَوضُونةٍ؛ ومعنىٰ: **(مَوْضُونَةٍ)** أي: مَنْسُوجَةٍ بالذَّهبِ والجَوهر، وهذا غاية في الحُسْنِ والجَمالِ والتَّمام؛ كما قال تعالىٰ:﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة:١٥].

قوله: (ثُمَّ فُرُشُهُمْ بَطَائنُها إسْتَبْرَقٌ): فالفرش التي يجلسون عليها باطِنها من الإسْتبرق؛ **والإسْتَبرقُ**: هو ما غَلُظَ مِنَ الدِّيباج؛ كما في قوله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ [الرحمن:٥٤].

قوله: (كَيفَ ظَنُّكُمْ ظَواهِرُها ؟!): فإذا كانت البطائن التي لا تُرىٰ في العادة بهذا الجمال والحُسنْ، فكيف الظَّنُّ بظواهِرِها؟! ولهذا قال النَّاظِمُ: **(لا مُنْتَهَىٰ لِجَمَالِها)**؛ أي: جمال الظواهر لا منتهىٰ لهُ.

وهذا المعنىٰ الذي ضمَّنَهُ الناظِمُ في هذا البيت وردَ عن جماعةٍ من الصحابة ﭫ، منهم ابن مسعودٍ وأبو هريرة ﭬ،

حيث قالا عند هذه الآية: «قد أُخبِرتُم بالبطائنِ، فكيف لو أُخبرتم بالظَّواهر؟»[(١)].

وقيل لسعيد بن جُبير رحمه الله: «هذه البطائنُ مِنْ إستبرقٍ، فما الظواهر؟ فقال: هذا ممَّا قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]»[(٢)].

وثَبَت في الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: أعددتُ لعباديَ الصالحين: ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر**»[(٣)].

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٢٤٣)، وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٤/ ٢٩٣).

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٢٤).

قال الناظمُ رحمه الله:

٣٣- وإنْ تَـكُنِ الأُخرىٰ فوَيْـلٌ وحَسْـرَةٌ
ونـارُ جَحِـيمٍ مـا أَشَـدَّ نَكَالَهـا!

٣٤- لهُـمْ تَحْـتَهُمْ مِنْهـا مِهـادٌ، وفَـوْقَهُمْ
غَواشٍ، وَمِنْ يَحْمُومِ ساءَ ظِلالُها

٣٥- طعامُهُمُ الغِسْلينُ فِيها، وإنْ سُقُوا
حَمِيمًا بِهِ الأمعاءُ كانَ انْحِلَالُها

٣٦- أَمانِيُّـهُم فـيها الـهَلاكُ، ومـا لـهم
خُرُوجٌ وَلا مَوْتٌ، كما لا فَنَا لها

الشرح

هذا معطوف علىٰ ما سبق، فبعدَ أن ذكرَ القِسمَ الأوَّل في قوله: (فإنْ تَكُ مِنْ أَهلِ السَّعادةِ)، ثم ذكرَ حالَهم وما أعدَّ الله ﷻ لهم من النَّعيمِ والسَّعادة؛ أردفَ ذلك بِذكرِ القسمِ الآخر؛ فقال: (وإنْ تَكُنِ الأُخْرىٰ)؛ وهم: أهلُ الشَّقاوةِ والخَسارةِ؛ (فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ) **والوَيْلُ** هو: الهلاك، وقيل: الـخِزْيُ، وقيل: الـعذابُ، وقيل: وادٍ في جهنَّم.

وقد جاءت هذه اللفظة (وَيْل) في الوعيد للمكذبين والمعرضين في مواطن عديدة في القرآن؛ منها: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[الطور: ١١]، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[المطففين: ١]، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

قوله: (وحَسْرَةٌ): أي: ندامةٌ وأَسَف؛ في وقتٍ لا تنفع فيه الندامة.

وجاءت تسميةُ يومِ القيامةِ بـ: «يومِ الحَسْرة» في قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]؛ وذلكَ لأَنهم يتحسَّرون وتتقطَّع أفئدتُهم أسفًا وندامةً على ما قدَّموا في الدنيا، ولكن لا يفيدهم ذلك ولا ينفعهم.

قوله: (وَنَارُ جَحِيمٍ مَا أَشَدَّ نَكالَها)، النَّكَال: هو العقوبةُ، فالمعنى: ما أشدَّ العقوبة التي أُعِدَّتْ لأهل الشقاوةِ في النَّار، وقد أورد الناظمُ رحمه الله بعض الأمثلة لهذا النَّكَال فقال:

(لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ غَوَاشٍ)؛ يشير رحمه الله إلى قول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]، فقول الله ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المهاد هو: الفِراش، فالفراشُ الذي يفترشونَهُ مِنْ جَهَنَّم،

وقوله ﷻ: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾: أي: لِحاف، فلِحافُهُم وغِطاؤُهُم مِن جهنَّم.

قوله: (وَمِنْ يَحْمُوم سَاءَ ظِلَالُها): يشيرُ رحمه الله إلى ما دلَّ عليه قول الله ﷻ في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤].

فالظلُّ الذي يستظلُّون به مِنْ يَحْموم، **واليحمومُ** هو: دُخانٌ شديدُ السَّوادِ، فكأنَّهم هربوا مِنَ السَّمومِ إلى ظِلٍّ مِنْ يحموم، ومِن وصفِهِ أيضًا أنَّه: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾، فهو مكانٌ ومَنزِلٌ شديد الحرارة، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾، أي: غَيْرُ حَسَنِ المنظر.

قوله: (طَعَامُهُمُ الغِسْلِين)، كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[الحاقة: ٣٥-٣٦]، **والغِسْلِين**: هو صَديد أهلِ النار الخارجُ من جروحِهِم وقُروحهم.

قوله: (وإنْ سُقُوا حَمِيمًا بِهِ الأَمْعَاءُ كَانَ انْحِلَالُها)؛ فإنَّهم إن أكلوا من هذا الغِسْلينِ فزعوا للماء ليسقوا منه، فيُسْقَونَ حَمِيمًا شديدَ الحرارة؛ تتقطَّعُ أمعاؤُهم بشربه، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[محمد: ١٥].

ثُمَّ ختمَ رَحِمَهُ اللَّهُ بذكرِ أربعةِ أحوالٍ للكفار في نارِ جهنَّم:

الأولى: (أَمَانِيُّهُمْ فِيهَا الهَلَاكُ)، فمن حالِهم أنَّ أكبرَ أمانيِّهم بعد معاينتهم لأهوال النَّار، ومقاساتهم فيها لأشدِّ العذاب هي: أن يُهلكَهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠].

الثانية: (ومَا لَهُمْ خُرُوجٌ)؛ أي: ليس لهم خروجٌ منها، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٦٧].

الثالثة: (وَلا مَوْتٌ)، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٦-٣٧].

الرابعة: (لا فَنَا لَها)، فنارُ الكفارِ لاتفنى، بل هي باقيةٌ أبدَ الآبادِ، وهُم مخلدون في العذاب كما جاء في غير آية من القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قال الناظمُ رحمه الله:

٣٧- مَحَلَّينِ قُلْ لِلنَّفْسِ: ليسَ سِواهُما
لِتَكْسِبَ أوْ فَلْتَكْتَسِبْ ما بَدَا لها

٣٨- فَطُوبَىٰ لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ وتَخَفَّفَتْ
فتَنْجُو كَفافًا لا عليها وَلا لها

الشرح

لما ذكر الناظم رحمه الله ما أعدَّهُ اللهُ عز وجل لأهل السعادة من نعيم الجنة، وما أعدَّهُ لأهل الشقاوة من عذاب النار، خَتَم بهذه الموعظة العظيمة فقال:

(مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا)؛ أي: فقل أيها الناصح لنفسه، إنَّ الدارَ الآخرةَ لابدَّ من الانتقال والارتحال إليها، وليس فيها إلا محلان: إمَّا الجنة أو النار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورىٰ: ٧]، وليس هناك محلٌّ ثالث.

قوله: (لِتَكْسِبَ أو فَلْتَكْتَسِبْ ما بَدا لَها)، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فما عَمِلَتْهُ من خيرٍ ستنالُ ثوابه وأجرَهُ، وما عَمِلتْهُ من شرٍّ سيكون عليها عقابه

ووزره، في يوم المجازاة على الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

وإذا عرفَ العبدُ هذه الحقائقَ وما سبق من ترغيبٍ وترهيبٍ، ورجاءٍ وخوفٍ، ورغبةٍ ورهبةٍ؛ وجبَ عليه أن يَتنبَّهَ وأن يَتذكرَ مصيرَه ومآله يوم القيامة، فما ثمَّتَ إلا جنة أو نار، وإنَّ الجنة لها أعمالٌ، والنار لها أعمال، فمن عَمِلَ بأعمال أهل الجنة الصالحة فاز بثوابها وأجرها، وإن اكتسبَ السيئات والمعاصي نالَ عقوبَتها ووزرها ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

ثم ختَمَ الناظِمُ رحمه الله بتأكيد المعنى الذي صدَّر به هذه القصيدةَ فقال: **(فَطُوبَى لِنَفْسٍ)**: أي حالٌ ومآلٌ طَيِّبٍ كَريمٍ، وذلك في جنات الرِّضوان، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد: ٢٩].

قوله: (جَوَّزَتْ وَتَخَفَّفَتْ): أي: تَنبَّهت لحالِ الدُّنيا وزُخرُفِها الزائل الفاني، فكان حالُها أن: **(جَوَّزت وَتَخَفَّفَتْ)**؛ فتخفَّفَتْ من الدنيا، ولم تَنْهَمِك في مُتَعِها وزُخرُفِها، بل كان أكبرُ هَمِّها الدار الآخرة، وطلب ما عند الله عز وجل.

قوله: (فَتَنْجُو كَفَافًا لا عليها ولا لها)، يقال: كَفافًا، أي: سواءٌ بسواء، فلا يوجدُ مُوجِبٌ للعقاب، ولا يوجدُ مُوجِبٌ للثواب فيما يتعلَّقُ بأمور الدنيا.

ومما يعين على فهم هذا المعنى الذي ذكرَهُ الناظم رحمه الله ما أخرجَهُ الترمذي في «جامعه» من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أنَّ رجلًا قعدَ بين يدي النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ لي مَمْلُوكِين يكذِّبُونني ويَخُونُونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال النبيُّ ﷺ: «**يُحْسَبُ ما خانوك وعَصَوك وكذبوك، وعقابُك إياهم، فإن كان عقابُك إياهُم بقدرِ ذُنُوبِهم كان كَفَافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابُك إيَّاهم دونَ ذُنُوبهم كان فَضْلاً لك، وإن كان عقابُك إيَّاهم فوقَ ذُنُوبِهم اقتُصَّ لهم منك الفَضْلُ**»، قال: فتنحَّى الرجلُ فجعلَ يبكي ويهتِفُ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما تقرأ كتاب الله،** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧]»، فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أَجِدُ لي ولهم شيئًا خيرًا مِن مُفارَقَتِهم، أُشْهِدكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهُم»[(١)].

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٣١٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٩٠).

فليراجعِ المرءُ نفسَه في كلِّ ما يتعامل به مع الناس، فإن كان يَمضِي فيه بالتَّجَوُّزِ والتَّخَفُّفِ، فالأمرُ كفافٌ، لا له ولا عليه، وإلا فليكنْ في غايةِ اليَقَظةِ لئلا يُحَمِّل نفسَهُ مِن مظالمِ العباد ما يكون ندامةً يوم القيامة، وأن يُذكِّر نفسَهُ دائمًا بالوقوف بين يدي الله وبالحساب، وأنَّ الموازين تُنصَبُ يومَ القيامة، وتؤدىٰ الحقوق لأصحابها؛ فيبعثهُ ذلك علىٰ أخذ الحِيطةِ والحَذَرِ، ومع ذلك يسأل ربه ﷻ دائمًا النجاةَ والمعونةَ والتوفيق والسداد، فإن الأمر بيده وحده لا شريك له.

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد القول وصالح العمل، إنَّه سميعٌ قريبٌ، وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ وآله وصحبه.

تم بحمد الله